مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 14 / العــدد: 01 (2024)، ص 671-682

نظرية النظم. قراءة في الأسس والأطر المرجعية

Systems theory. Read the foundations and frames of reference

تجاني حبشي*

جامعة زيان عاشور الجلفة (الجزائر)

habchijani@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/03/20 تاريخ القبول: 2024/05/10

ملخص:

تعرض هذه الورقة البحثية على امتدادها مكانة نظرية النظم وأهميتها قديما وحديثا،حيث أحدثت ثورة علمية في الفكر البلاغي العربي، وهي تعد من أهم النظريات اللغوية العربية التي لامست اللغة والأدب والنقد ، وقد استطاع عبد القاهر الجرجاني استنباط الكثير من الرؤى الجديدة والأفكار القيمة المتعلقة ببنا الخطاب. ولا ضير أن ما قدمه تقاطع في الكثير من القضايا مع ما أنتجته النظريات اللسانية الغربية في مجال اللغة والنقد. ومن أجل إثبات هذه الحقيقة العلمية سعت هذه الدراسة إلى التعرض إلى مفهوم هذه النظرية وأسسها العلمية، مبرزة مظاهر التجديد التي أضافها عبد القاهر الجرجاني لها، ثم مكانة نظرية النظم وأهميتها في الدرس اللساني. وقد انتهت إلى جملة من النتائج ومن أهمها؛ التأصيل لهذه النظرية ، ومن ثمة التأكيد على أن الفكر اللغوي العربي لا يقل شأنا عن نظيره الغربي في البحث ومكاشفة الظواهر اللغوية والأدبية.كل ذلك بأسلوب علمي واضح يجمع مختلف الآراء وفق قراءة تحليلية، نسأل الله تعالى فيها التوفيق والسداد.

الكلمات المفتاحية: نظرية النظم ، تعليق الألفاظ ، الإسناد ، التعلق النحوي

Abstract:

Throughout this research paper, the status of systems theory and its importance in ancient and modern times is presented.It has brought about a scientific revolution in Arab rhetorical thought, and it is considered one of the most important Arabic linguistic theories that have touched on language, literature , and criticism .Abdul Qaher Al-Jurjani was able to derive many new insights and valuable ideas related to the structure of discourse . There is no harm in the fact that what he presented intersected with what Western linguistic theories produced in the field of language and criticism on many issues. In order to prove this scientific fact, I sought through this study to introduce the concept of this theory and its scientific foundations highlighting some aspects of innovation that Abdul Qahir Al-Jurjani added to this theory

* تجاني حبشي

and concluding with highlighting the importance of systems theory in the linguistic lesson. The study concluded with a number of valuable results. Which include: Rooting for this theory, and then emphasizing that Arabic linguistic thought is no less important than its Western counterpart in researching and revealing linguistic and literary phenomena .All of this in an appropriate manner that brings together the various opinions by documenting and analyzing them in a way that is easy to mention ,according to a descriptive, analytical .And comparative reading, in which we ask God Almighty for success and guidance.
Keywords: Systems theory ,Commentary on words , Attribution Syntactic correlation

مقدمة:

يعد علم البلاغة من أبرز العلوم وأشرفها مكانة عن العرب، وقد ارتبط نشأته أول الأمر بدافع ديني بحت، تمثل في ارتباطه بالقرآن الكريم، وكان هذا العلم بمثابة الأداة المهمة لفهم معان القرآن، وإدراك مواطن الإعجاز فيه. وقد سعى العلماء بكل صدق وأمانة إظهار معجزة البيان القرآني، وإثبات تميزها وتفردها عن مختلف أنواع وصنوف الحديث من شعر ونثر، وألفوا في ذلك الكثير من المؤلفات في النظم والمجاز والإعجاز وفنون البلاغة المختلفة وكانت تلكم التصانيف عند الكثير من علماء البلاغة والنحو والأصول، وحتى النقاد بمثابة الرصيد المتين والمرجع القويم، والسند العلمي الرصين، ساهم ومايزال في فهم كنه الخطاب القرآني،وكذا في فهم النصوص الأدبية الشعرية منها والنثرية، التي انتشرت في عصور الأدب المتعاقبة، وبلغت شأوا من البيان، ودرجة عالية من الفصاحة.

حتى أنه ليمكن القول أن هذه التصانيف كانت ومازلت مرجعا لخزانة الأدب والثقافة العربية.

إن المتتبع لتاريخ نشأة البلاغة العربية عند العرب منذ العصر الجاهلي يجد نفسه أمام حقيقة مفادها أن فصحاء العرب كانوا يعرفون الكثير من الأحكام العلمية في مجال النقد والبلاغة، تحاكي ما توصل إليه النقاد في العصور المتأخرة من تاريخ الدولة الإسلامية، فقد بلغوا شأوا رفيعا ومكانة متميزة في البلاغة والبيان،وعرفوا بفصاحة اللسان، وبلاغة التعبير، وبرعوا في أساليب اللغة، وحذقوا من حسن البيان. وهذا إن دل فإنما يدل على تعالي ذوقهم الفني، وعلو كعبهم في مجال تذوق للشعر، وإدراكهم لأسراره، ومعرفة حسنه من ردئه، واستيعابهم لفنونه ومناحي القول فيه.ولا ضير أن ما تعلموه من هذه الفنون إنما كان نتاج السليقة والفطرة، فقد جبلوا على الفصاحة أبا عن جد ، إذن؛ فالبلاغة عندهم كانت أمرا فطريا عليه، هدتهم إليه سليقتهم، وألفت سماعه آذانهم، ونطقت به ألسنتهم ، فهم يعرفونه ولا يكادون يختلفون عليه.

وإنطلاقا من هذا التصور يمكن أن القول أن الإرهاصات الأولى للبلاغة العربية كانت نتاج تلكم المناظرات الأدبية الفنية بين الشعراء الجاهليين التي كانت تقام بينهم في أسواقهم الشهيرة؛ التي كانت بمثابة مراكز علمية فنية

للأدب والنقد، حيث كان أبرز الشعراء يتصدرون المجالس وينقدون الشعر والشعراء،ويحكمون للجيد بجودته وللرديئ برداءته. ومن تلكم الأحكام النقدية والملاحظات الفنية التي انبثقت من ذوقهم الأصيل، وبراعتهم الفائقة

بدأت تتكون ملامح البلاغة،كفن جميل له خصائصه وميزاته التي تميزه عن بقية فنون اللغة العربية.

وبقى حال البلاغة على هذه الشاكلة حتى العصر العباسي، عصر النهضة العلمية والتميز المعرفي، وهنا نسجل إتساع مجال الملاحظات النقدية في مجال البلاغة، وكان ذلك بلا شك نتيجة تطور الفنون الأدبية المختلفة من جهة وكثرة الوافدين من غير العرب إلى البلاد الإسلامية رغبة في اعتناق الإسلام وتعلم علوم العربية، فقد نبغ منهم الكثير في مجال الأدب شعرا ونثرا، نذكر منهم على سبيل الذكر ابن المقفع(ت143هـ)،الذي كان من أعلام الأدب حيث ترجم عددا لا يستهان به من الكتب الفارسية والهندية إلى العربية، والتي منها"كليلة ودمنة". أما من الشعراء فنذكر بشار بن برد وأبو نواس أبو العتاهية ومسلم بن الوليد وغيرهم كثير. الذين كان لهم صيتا كبيرا وشهرة واسعة،وكان إنتاجهم يفيض فصاحة وبيانا،ومفعما بالكثير من المظاهر البلاغية الرائعة على مستوى الشكل والمضمون على حد سواء.

وحقيق بنا هاهنا الإشارة إلى نقطة مهمة مفادها؛ أن البلاغة العربية لم تنشأ في بدايتها علما مكتملا، وإنما نشأت شأنها شأن كل علم في بدايته، مجرد إرهاصات وملاحظات متناثرة على هامش العلوم العربية والإسلامية الأخرى التي سبقتها إلى الظهور وإلى التأسيس. حيث كانت لا تخرج عن كونها مجرد مهارات للإبانة والإفصاح عما يجيش في نفس المتكلم من معان، بحيث يتم توصيلها إلى السامع على نحو محكم ، يبرهن على ذكاء المتكلم وإدراكه لمقتضيات السياق ومتطلبات الموقف. لكن حال البلاغة ما لبث أن تغير بتوجه بعض العلماء إلى التدوين في الإعجاز القرآني على وجه الخصوص، ومنهم المعتزلة الذين جعلوا من قضية الإعجاز شغلهم الشاغل، وجاء بعدهم بعض العلماء الذين خالفوهم المنهج وتناولوا هذه القضية بمنظار مختلف ، أوضحوا فيه حقيقة نظم القرآن الكريم ومظاهر إعجازه في هذا الباب، نذكر منهم أبو الحسن الرماني(ت384 هـ)، الذي ألف رسالته"النكت في إعجاز القرآن"،وأبرز فيها مواطن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم على مستوى الكلمة والنظم. وأبو سليمان حمد بن محمد الخطابي(ت388هـ)، الذي ألف رسالته"بيان إعجاز القرآن"، بين فيها مواطن القوة في نظم القرآن.والقاضي الباقلاني(ت403هـ) في كتابته"إعجاز القرآن"،واستظهر فيه جوانب الإعجاز البياني في القرآن الكريم،كما تحدث عن فنون البلاغة وعلومها المختلفة.

ومع بداية القرن السابع للهجري ونظرا لتأثر البلاغة بالمنطق الأرسطي، بدأت تفقد مقوماتها الأدبية وقيمها الجمالية التي كانت تتمتع بها، واعتمدت على التفريعات ووفرة القوالب الجامدة، وغلب عليها الجمع والتصنيف والتقعيد.ومن العوامل الأخرى التي تسببت في تدني مكانة البلاغة هم علماء البلاغة أنفسهم، الذين كانوا يفتقدون للكثير من المواصفات التي اتصف بها من سبقهم أمثال الجرجاني وغيره. فقد نقص الذوق الأدبي عندهم وانعدم

النقد البناء لديهم، فلم يكونوا متذوقين ولا قادرين على إشعارنا بمواطن الجمال، فجاء إنتاجهم جافا معقدا لا روح فيه، وسقطت البلاغة بذلك في معيارية خالصة، وكانت أقرب ما تكون جدلا فلسفيا لا أثر للبلاغة فيه.

وخلاصة القول أن البلاغة العربية قد تناولها الكثير من الدراسين العرب، إلا أن ماكتبوه فيها لم يكن غير إشارات لم يرتقوا بها إلى أن تكون فنا قائما بذاته، وفق أسس وقواعد محددة ، والذي صاغها علما قائما بذاته، له قواعده وأسسه العلمية الثابتة هو عبد القاهر الجرجاني ثم جاء بعده السكاكي، الذي يرجع له الفضل في تقسيم هذا العلم

وتبويبه،وتلاه القزويني الذي ألف التلخيص والإيضاح، وجمع فيهما مختلف البحوث البلاغية العميقة.

ويعد موضوع النظم من أهم المباحث المعرفية في حقل البلاغة، وقد ارتبط ظهوره أول الأمر في أوساط المعتزلة الذين أشرعوا باب البحث في إعجاز القرآن الكريم، فتدارسوا طرائق نظمه وتأليفه، وقارنوها بأجود ما جادت به قرائح الشعراء والخطباء العرب. وكان تركيزهم منصبا على الجانبين البلاغي والنحوي بالأساس، ثم توالت الجهود في هذا الباب من العلم وتطورت في رحاب المذاهب الكلامية، وبرز الكثير من العلماء العرب الذين تناولوا قضية إعجاز الخطاب القرآني، وألفوا فيه الكثير من المؤلفات إلى أن ظهر عبد القاهر الجرجاني، ومن خلال مؤلفاته المهمة والتي منها "الدلائل والأسرار" وقد تمكن بعبقرية فذة من ضبط مفهوم النظم وتحديد أسس نظريته.

وانطلاقا مما ذكر تأتي هذه الورقة البحثية؛ لتعالج جزئية من الجزئيات المهمة في البحث اللساني، وهي أسس نظرية النظم وأهميتها العلمية.وقد تمحورت إشكاليتها فيمايلي:نالت نظرية النظم مكانة مرموقة في الدرس البلاغي العربي القديم، وهي تعد من أهم النظريات اللغوية العربية، التي تناولت أهم الأسس التي تقوم عليها بنية الخطاب. وقد تمكن عبد القاهر الجرجاني من تحديد مفهومها وأسسها وأثرها في اثراء اللغة، واستطاع الإرتقاء بها حتى أوصلها إلى مصاف الدراسات اللسانية الحديثة في المناهج الغربية

وقد انبثقت عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات تم حصرها فيمايلي:

-ما المقصود بالنظم. ومدى توافق العلماء في حده.

-ما مدى اهتمام العلماء بالنظم قبل عبد القاهر الجرجاني.

-ما الجديد الذي أضافه الجرجاني لهذه النظرية.

-ما مكانة نظرية النظم وما أهميتها في الدرس اللساني.

أما عن هدف الورقة فيكمن في البحث في اسهامات علماء البلاغة في ضبط ملامح النظم، مع التركيز على جهود عبد القاهر الجرجاني المتمثلة في تحديد حده وأسسه وآلياته وأثرها في إثراء اللغة وضبط المعنى، من خلال ما

مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015
المجلد 14 / العــدد: 01 (2024)، ص 671-682

طرحه من أدوات لغوية ووجوه للتراكيب. أما عن أهمية الورقة فتتمثل في وجوب الاطلاع على مختلف الدراسات التي تناولت نظرية النظم واستثمارها من الارتقاء بهذه النظرية ذات الأصل العربي العميق.ومن ثمة وضعها الموضع اللائق بها في ميدان الدرس اللغوي الحديث.

وقد سارت الدراسة على ضوء المنهج الوصفي التحليلي، حيث أستعين بالوصفي؛ أثناء عرض الآراء اللغوية لمختلف العلماء الذين تناولوا نظرية النظم قبل الجرجاني، أما المنهج التحليلي ؛ فاستثمر أثناء مناقشة أراء الجرجاني المتعلقة بالنظرية. وهذا التنوع في المناهج جاء رغبة في استجلاء الصورة والإحاطة بأطراف الموضوع.

وانطلاقا مما أومأنا إليه ارتأيت تناول العناصر الآتية:

1-فكرة النظم قبل عبد القادر الجرجاني

يراد بمصطلح النظم الجمع والنسج والتأليف والوشي والتحبير، وبالنسبة للغة هو ضم الكلمات بعضها إلى بعض على الأوجه الأحسن الذي يتوافق مع مقتضيات العقل والمنطق أو قل من متطلبات نظام اللغة ، أما من الناحية المصطلحية فيمكن القول؛ أن هذا المفهوم لم يحد بطريقة مفصلية ولم يتفق على مفهوم بعينه، ويرجع ذلك بلا أدنى شك إلى جملة من العوامل لعل منها:إختلاف التوجهات وتباين المرجعيات، وتعدد منطلقات لدى العلماء المرتبطة أساسا بالسياق الذي درسوا فيه النظرية، يضاف إلى هذا تداخل هذا المفهوم مع جملة من العلوم اللغوية الأخرى.

وسأحاول استعراض بعض الأقوال التي تحدثت عن النظم رغبة في استجلاء كنهه، ومنها ما ذكره الشريف الجرجاني معتبرا النظم هو تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني، متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل.[1] وهو يعتبر النظم هو التأليف والنسج ذاته، ولكن وفق شروط مضبوعة ومحددة منها ترتيب المعاني في النفس أولا، ثم تناسب دلالة الكلمات والجمل مع العقل والمنطق ثانيا، وذلك باختيار الألفاظ المناسبة واحترام القواعد المعهودة في سمت كلام العرب. وغير بعيد عن هذا يأتي تصور عبد القاهر الجرجاني للنظم، حيث يعتبره تعليقا للكلِم بعضه ببعض، يقول في هذا الإطار النظم تعليق الكلِم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض.[2] مضيفا إلى الشروط السالفة الذكر شرطا بالغ الأهمية وهو وجوب توخي معاني النحو بالضرورة ، لما له للنحو من أهمية في النظم ، فليس النظم في نظره شيئا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم. لما يتيحه من خيارات تجعل الناظم يُعمل فيها فكره لانتقاء أكثرها نجاعة بعيدا عن الاعتباطية والعشوائية.

2-نظرية النظم قبل عبد القادر الجرجاني

يذهب الكثير من الباحثين إلى أن الارهاصات الأولى للنظم تعود في التراث اللغوي العربي وغير العربي على حد سواء إلى قرون قبل عبد القادر الجرجاني ، حيث نجد أن اليونان قد عالجوا الكثير من القضايا المتعلقة بالنظم ، فأرسطو على سبيل المثال تحدث في مؤلفه " الخطابة " في أكثر من موضع عن قضايا مهمة مرتبطة بالنظم، منها الروابط بين الجمل

وأدوات الوصل والتكرار، وقضية الأسلوب المفصل والأسلوب المنفك. وهو بهذا يكون قد اتخذ من هذه الموضوعات مرتكزا له في دراسة الأساليب والتمييز بينها.كما أن الهنود كذلك تطرقوا لموضوع النظم، وهو ما أشار إليه الحاجظ في كتابه"البيان والتبين"، حيث ذكر الصحيفة الهندية، وما شملته من أصول تتصل بالخطيب وصفاته وبالأسلوب وخصائصه، وذات الفكرة أشار إليها البيروني في تاريخ الهند، حيث وصف المحاولات البلاغية التي كانت تتصل بقضية الإعجاز في كتابهم الديني.

أما عند علماء العرب فهناك الكثير من الإشارات التي تمت الإشارة فيها إلى فكرة النظم، غير أنه سيتم التركيز على بعض النماذج فقط رغبة في تقديم صورة واضحة عن تطور هذه النظرية. وتعتبر محاولة ابن المقفع (ت142هـ) من أقدم

المحاولات فقد أشار بإسهاب إلى النظم، وشبه الناظم بصاحب فصوص وجد معادن مختلفة، فتعامل معها بخبرته فنظمها وصنفها التصنيف الذي يليق بها. وفي هذا الصدد يقول:« فليعلم الواصفون المخبئون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ، ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا، فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل، ووضع في كل فص موضعه...،فسمي بذلك صانعا رفيقا...،فمن أجري على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه، فلا يعجبن إعجاب المخترع المبتدع فإنه إنما اجتباه كما وصفنا ».[3] ومن هنا يمكن القول أن النظم لا يعدو أن يكون هو التأليف والضم والنسيج ولكن بما يتوافق مع قانون اللغة والمنطق بشكل عام .

وليس بعيدا عن هذا يأتي تصور سيبويه(ت180هـ)؛ فرغم أنه لم يشر إلى مصطلح النظم مباشرة، ولكنه أشار إليه بكلمة مرادفة له وهي لفظ الاستقامة، إلا أنه استطاع أن يوسع مفهومه، ويربطه بصحة الكلام وفساده، معتبرا أن مناط الكلام هو تأليف العبارة، وعلاقة الألفاظ بعضها ببعض، حيث يرى أن وضع الألفاظ في مواضعها دليل على حسن نظم الكلام، ووضعها في غير موضعها دليل على قبح النظم فساده. أما الجاحظ(ت**255**هـ) فقد أعده بعض النقاد بأنه من الأوئل الذين حددوا معالم المذهب الاعتزالي في إعجاز القرآن، حيث ارتبطت جهوده بما قدمه علماء المعتزلة قبله فقد تتبعوا مواضع الفصاحة والبيان والجمال في القرآن الكريم خصوصا وكلام العرب عموما، وهذا الاهتمام البالغ يرجعه الباحثون إلى طبيعة مذهبهم العقائدي المنغمس إيما انغماس في البحث عن محاسن الكلم. وهو ما دفعهم إلى الولوج إلى مبحث النظم، باعتباره أفضل مبحث يمكن من خلاله أن يتعرفوا على مواطن الإعجاز.

وتجدر الإشارة هاهنا إلى أن أهم ما سجل للجاحظ هو رده على أصحاب الصرفة، الذين أنكروا أن يكون القرآن معجزا بنظمه،وكذا رده أيضا على أصحاب المعاني، الذين يذهبون إلى قياس جمال الشعر بمعانيه، ثم بما أظهره من القيم الفنية التي تعود إلى جمال الصياغة، والتلاؤم اللفظي، والانسجام الصوتي والبديع. ومن أفضل المواطن التي أشار فيها إلى النظم قوله:« وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به».[4] ومعنى أن أجود الشعر في نظره هو ذلك الشعر الذي تتلاحم أَجزاؤه ، فتدرك أنه قد سبك سبكا واحدا، وهذا يعد شرطا أساسيا يمكن من وصول الكلام إلى النفوس.

مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015
المجلد 14 / العـدد: 01 (2024)، ص 671-682

وفي ذات الصدد تأتي جهود الرماني، الذي يعد أشهر من تناول مسألة الإعجاز وربطها بالنظم ، فهو يرى أن الإبداع يكمن في النظم لا في الألفاظ ذاتها، فهي لا تعد إلا وعاء له، وكأنه هنا يشير إلى علاقة اللفظ بالمعنى القضية التي نالت اهتمام الكثير من العلماء والنقاد، فهو قد أولى لها عناية خاصة عند حديثه عن التلاؤم بينهما المراد به حسن النظم. واشترط هنا وجوب الاهتمام بالجانب الشكلي، المتمثل في الصياغة اللفظية انسجاما مع مذهبه الاعتزالي،وهو يرى أن حسن البيان في الكلام على مراتب، أعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة حتى يحسن في السمع وتتقبّله النفس، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة. أما عن جهود ابن قتيبة ت276هـ) في هذا الباب، فيمكن حصرها في كونه اعتبر النظم عبارة عن سبك الألفاظ ، وضم بعضها إلى بعض في نظام دقيق وتآلف واضح مع المعاني، بحيث تسير معا في سلاسة وعذوبة ، ومن ثمة تصور المعاني أصدق تصوير. وهذا التصور الدقيق يفهم منه أن ابن قتيبة اهتم بجانبين مهمين في اللغة، وهما جانب الألفاظ بإعتباره يمثل الجانب الشكلي الظاهري للكلام ، والجانب الخفي وهو المتمثل في المعاني، ودعا إلى وجوب تآلف الألفاظ مع المعاني، بحيث تسير معا في سلاسة وعذوبة دونما تنافر بينهما .

وفي هذا الإطار حقيق بنا أن لا نتجاوز جهود كل من أبي هلال العسكري(ت395هـ)، ذلك العالم العبقري الذي تناول النظم من جوانب متعددة ومتنوعة،وقدم ملاحظات كثيرة ومفيدة، أعتبرت بمثابة المرجع الذي أسس لملامح النظرية نذكر منها على سبيل التمثيل ما سماه حسن وسوء الرصف.فالحسن في نظره أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلاحذفا لا يفسد الكلام ولا يُعَمي المعنى، وتضم كل لفظة إلى شكلها وتضاف إلى لفقها. أما سوء الرصف فهو تقديم ما ينبغي تأخيره منها،وصرفها عن جوهرها وتغيير صيغتها،ومخالفة الاستعمال في نظمها».[5] ومن هذا المنطلق فإن حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وتبيانا وتفسيرا، أما سوء التأليف فيحدث العكس من ذلك، فتنشأ عنه رداءة التركيب. وإضافة إلى هذا فقد تناول فكرة الترابط المعنوي بين أجزاء الكلام،وهو ما يسمى بالحبك ، إذ يجب أن يكون الكلام مشتبها أوله بآخره، ومطابقا على مستوى المعنى، ولا تتخالف أطرافه ولا تتنافر أفكاره. وأبي بكر الباقلاني (ت403هـ)، الذي أعتبر أفضل عالم في القرن الخامس ألف في باب الإعجاز مستظهرا فكره الأشعري ردا على المعتزلة، فقد قاد معركة دينية فكرية لغوية ضدهم، هادفا من ورائها إلى تأسيس نظرية أشعرية خالصة في قضية إعجاز القرآن، فهو يؤكد بالأدلة الدامغة والبراهين الساطعة على أن الإعجاز في القرآن الكريم إنما يكمن في نظمه الذي يخالف ما هو شائع في كلام العرب.يقول في هذا الصدد:« فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة، والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب».[6] ولعل مما يستنتج من هذه المقولة هو أنه أجرى موازنة دقيقة وعميقة بين الخطاب القرآني والنص الشعري العربي الفصيح ، وخلص من خلالها إلى أن أسلوب البشر وإن علا في مراتب الفصاحة وسما في مواطن البلاغة فهو لا يخلو من النقص والاختلال إن على مستوى الشكل أو على المضمون، فإنك إن تتبعته بدقة وتمعن يظهر لك منه عدم انسجام المعاني واختلال في المباني على عكس أسلوب القرآن الكريم ، الذي يظهر لك منه نظم الحروف ورصفها، وجمال الأسلوب ورعته، وسلاسة اللفظ وقوته، وبراعة العبارة ودقتها،وروعة النظم وإنسجامه.

وخلاصة لما ذكر نقول ؛ أن النظم عند الباقلاني ورد وفق تصورين: التصور الأول؛ تمثل في طريقة تأليف الكلام، وقد استعمله بهذا المعنى عند حديثه عن الوجوه التي يشتمل عليها بديع وجمال نظم القرآن، أما التصور الثاني؛فهو نظم الحروف وصياغة الكلام. وفي هذا المعنى يلتقي مع المعتزلة ويوافقهم في كثير من أسس مذهبهم في البيان وإعجاز القرآن. وعليه يمكن استخلاص نتيجة عامة هي أن الباقلاني وإن كان يمثل مرحلة البحث عن نظرية اشعرية في النظم والإعجاز القرآني فإن محاولته لم تتحقق بالشكل الصحيح ، فهو وإن وفق في تقديم أراء ثرية وأفكار ناضجة في هذا المبحث إلا أنه لم يفلح في وضع تصوّر مطابق لمذهب الأشاعرة في كلام الله تعالى، ولنظريتهم المتميزة في الكلام النفسي، وفي قِدَم المدلول القرآني وحدوث دلالاته.

واستكمالا لجهود علماء العرب في باب النظم جدير بنا التذكير بجهود القاضي عبد الجبار(ت415هـ)، الذي يعتبر النموذج الحي الذي استطاع التقعيد لنظرية النظم، وليس أدل على ذلك من أن عبد القاهر الجرجاني قد تأثر بأفكاره واستفاد منها عند التأسيس لهذه النظرية. فقد كان عبد الجبار من أكثر العلماء وضوحا في تناوله للنظم، ومن المفاهيم التي تناولها الفصاحة، فالنظم لا يصلح أن يكون مفسرا لفصاحة الكلام، لأن النظم قد يكون واحدا، ويفضل أديب صاحبه فيه فلا بد من مزية الفصاحة فيهما، ولذلك لا يصح أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ وحسن المعنى. فالفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام أبدا ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة. ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة ، وقد تكون بالإعراب. وتظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون عداها. وبهذه الملاحظات وغيرها يمكن القول أن فكرة النظم قد اتضحت ملامحها وأخذت طريقها الواضح المعالم على يد القاضي عبد الجبار، وأصبحت بذلك فكرة منتظمة لها منهجها الدقيق.

3-نظرية النظم عند عبد القادر الجرجاني

أكد الكثير من الباحثين أن عبد القاهر الجرجاني قد تأثر أيما تأثر بكل من الجاحظ، الذي وضع مصطلح النظم أثناء تعليله إعجاز القرآن الكريم، والقاضي عبد الجبار عند تفسيره لمصطلح الفصاحة وربطه بفصاحة القرآن، معتبرا إياها الأساس القويم الذي يقود إلى الأداء السليم والصياغة النحوية الصحيحة للتعبير، وهذا التأثر ظهر جليا في طريقة تناوله للنظم، فقد أفرد فصولا متعددة وقف فيها على دلالته وماهيته، وشرح مفاهيم وأسس نظرية النظم. وقد اعتبر النظم بمثابة السر الذي يكمن وراءه إعجاز القرآن الكريم ، وهو هنا يخوض معركة عقائدية شرسة ضد من كان في الساحة اللغوية آنذاك من آراء أنصار الصرفة، وقد زعموا أن الله صرف قلوب العرب عن الإتيان بمثل القرآن، حيث ذهب قائدهم إبراهيم بن سيار النظام، إلى أن دلالة الإعجاز هي صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبرا وتعجيزا ، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة. غير أن هذه الفكرة رفضت رفضا مطلقا، ولم تجد أي صدى عند الكثير من العلماء أنذاك وبخاصة علماء الأشاعرة، فلم يكن من الممكن الأخذ بها وقبولها لأنها ضمنيا سلبت القرآن الكريم ميزة التفرد والتميز والتفوق في نظمه وأسلوبه. ولعل هذا ما دفع بالعلماء إلى ضرورة التصدي لها معتقدين أن هذا التصدي لا يكون إلا بالبحث والتنقيب عن خصائص الإعجاز في الأسلوب القرآني.

ويعتبر عبد القاهر الجرجاني من أبرز أولئك العلماء، فقد تمكن بعبقريته الفذة وعلمه الغزير وحنكته المتميزة من حسم الخلاف لصالح كفة الأشاعرة ، مؤكدا على أن القرآن الكريم معجز ببلاغته ونظمه، وأن فصحاء العرب عجزوا فعلا على أن يأتوا بسورة من مثله. دعم فكرته هاته بتناوله بعض القضايا المهمة منها:موازنته بين نظم القرآن والشعر العربي، وخلص إلى أن معان النحو في القرآن الكريم قد بلغت درجة من الوضوح والظهور لم يبلغها أي نص أدبي آخر. كما تناول بإسهاب فكرة أغراض المتكلِّم ومقاصده، وأحوال الخطاب وتنوع سياقاته، ومن هذا المنطلق استطاع أن ينفذ إلى صميم الظاهرة النصية من خلال نظرية النظم.

3-1-أسس نظرية النظم

يقر الكثير من الباحثين إلى أن ثمة إختلاف في وجهات نظر الدارسين المحدثين حول أسس نظرية النظم، غير أن المؤكد هو أن مساحة الإختلاف يسيرة، وأنه يمكن ردها إلى بعضها البعض لنصل إلى نقاط التقاطع مشتركة من شأنها أن تحدد وتحصر أسس هذه النظرية، وسيتم تبني ما هو مشترك من الأسس رغبة في الاختصار وتجنبا للإطناب والتفصيل.

وعليه فإن الأساس الأول هو نظم المعاني في النفس، هو أساس مرتبط بجوهر اللغة ذاتها، مبثوث في فكر الناطقين بها وقد استطاع الجرجاني فرضه بقوة، معتبرا إياه أهم الأسس التي يجب أن تراعى أثناء الكلام، فهو عنصر أساسي وجوهري في عملية النظم، ذلك أن النظم ليس عبارة عن نظم الألفاظ والحروف والكلمات وفقط بل هو نظم للمعاني في النفس بداية. فنظم الحروف لا يعدو أن يكون تواليها في النطق، دون أن يكون هناك معنى اقتضى هذا النظم، ولا أن يكون ناظمها قد تحرى رسما من العقل أثناء نظمها. أما نظم الكلمات فهو يقتضي تتبع آثار المعاني، وترتيبها في النفس. وهنا لابد من الإشارة إلى أن المقصود بالمعاني النفسية، ليس هو مطلقا ذلك المعنى الذي هو غريم اللفظ، ولا المعاني المعجمية للألفاظ المفردة، وإنما يعني المعاني النحوية التي بها يحدث النظم وعلى سلكها يتم ترتيب الألفاظ.

أما الأساس الثاني فهو ما سماه النقاد التعلق النحوي، ويعد محور مهم جدا في نظرية النظم، وهو عبارة عن ضم الكلم بعضه إلى بعض وفق قوانين محددة بعينها ، تجعل اللفظين المضمومين متعالقة فيما بينها، ومتماسكة من خلال علاقات لفظية ومعنوية، فالتعلق ليس هو نظم الألفاظ ومراعاة القواعد النحوية في بنائها وفقط ، ولكن هو نظمها تبعا لما يقتضيه ترتيب المعاني في النفس في ذاتها. ومعنى اللفظ لا قيمة له في ذاته وإنما في علاقته بغيره من الألفاظ الواردة قبله أو بعده. وهذا يدل على أن وضع الألفاظ بجوار بعضها البعض دون أي روابط بينها لا جدوى منه مطلقا ، بل لابد من توفر التقارب بتوفير جملة من العلاقات النحوية، فلا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يتعلق ويرتبط بعضه ببعض، ومن هنا يمكن القول أن التعليق هو ربط أجزاء الكلام مع بعضه البعض على الوجه السليم والصحيح الذي يرتضيه منطق اللغة، وهذا لا يتحقق إلا بتحقق تلازم واضح بين اللفظ والمعنى مما يجعلهما منسجمين معا أثناء تشكيل الصورة داخل التركيب.

أما الأساس الثالث فهو ما سماه الجرجاني بتخير الموقع، فهو يرى أن تخير الألفاظ لايعود إلى ما تحدثه من أصوات ولا إلى تلاؤمها معا بل يعود إلى تطابق معاني الكلام عليها، فالذي يحدد فصاحة الكلمة هو حسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، ومن هنا فإنه يتوجب على الناظم أن يحسن اختيار الموقع لكل لفظ، لأن ذلك يحقق جودة النظم ، فقد تكون

اللفظة فصيحة مؤدية للغرض في موقع وتكون عكس ذلك في موضع آخر، والسياق اللغوي هو الذي يحدد الموقع المناسب للفظة ما على حساب أخرى، وليس من فضل إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد، ذلك أنها تكتسب الفضل والمزية من خلال العلاقات التي تقيمها مع غيرها من الالفاظ.ومن هنا يمكن القول أن النظم عند الجرجاني لابد من أمرين اثنين أولهما المعنى؛ الذي يريد التحدث عنه، وثانيهما اللفظ؛ الذي نعبر به عن هذا المعنى، فاذا اختلف الغرض الذي يريد التعبير عنه فلا بد أن يختلف اللفظ وهذا جوهر ما تعنى به نظرية السياق.

أما آخر الأسس فهو توخي معاني النحو، فالجرجاني حين يتحدث عن النحو فهو لايقصد إطلاقا تلك القواعد التي تتحقق في الاعراب، وإنما يقصد به المعاني النحوية الوظيفية داخل التركيب التي ترتبط بالمعنى النفسي، الذي من خلاله يتم الاختيار والتأليف بين الألفاظ والعبارات، وعلى أساسها يتحقق النظم، فالاعتبار بمدلول العبارات لا بمعرفتها. ومن هنا فهو يوجب على الناظم ضرورة مراعاة قوانين النحو وقواعده المختلفة، لأن ذلك من شأنه أن يجعل الناظم يُعمل فيها فكره لانتقاء أكثرها نجاعة بعيدا عن الاعتباطية والعشوائية . فإذا ما تحقق هذا الشرط فإن نتيجته هي تحقق ارتباط دلالة النظم بقصد المتكلم ونيته ، حيث يتوجب عليه اختيار ما يناسب أغراضه وربطها مع المعاني النحوية، على أن يرتبها في نفسه ثم يبنى لها الكلمات منشئا بينها العلاقات الضرورية حتى يخرج بنظم مقبول. ويعد علاقة الاسناد من أبرز تلكم العلاقات وأهمها، وهو في حده تعلق المسند إليه بالمسند، حيث يرتبطان ارتباطا وثيقا بدون واسطة لفظية، وكل علاقة زائدة عليها إنما هي للبيان وإزالة الالتباس الذي قد يعتري الجملة. ولتوضيح ذلك نذكر بما ذهب إليه الجرجاني من أن الكلم ثلاث اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة ومحددة، وهو لا يعده ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما. ومن أمثلة تعلق اسم باسم مثلا بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه أو تابعا له صفة...، وأما عن أمثلة تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلا له أو مفعولا..، وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أوجه : أولاهما أن يتوسط بين الفعل والاسم، ثانيهما بما يتعلق به العطف،هو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الأول ، ثالثهما تعلق بمجموع الجملة كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط بما يدخل عليه. ومن هنا يمكن أن نخلص إلى نتيجة مفادها؛ أن نظرية النظم عند الجرجاني تقوم بالدرجة الأولى على التركيب النحوى في الكلام، لذلك نجده في مواضع كثيرة يصرح باستحالة الاستغناء عن قواعد النحو في تأليف الكلام.

4-مكانة نظرية النظم وما أهميتها في الدرس اللساني

تعد نظرية النظم مثال حي ونموذج علمي رائع لتكامل المعارف والعلوم، وربما يرجع ذلك لكونها تمخضت عن فكرة الإعجاز القرآني ،كانت وماتزال نظرية خالدة ومنفتحة على كل الاتجاهات اللسانية والنقدية الحديثة. فهي تشكل بحثا عميقا في مجال اللغويات عموما ولسانيات النص على وجه الخصوص، فالجرجاني يملك رؤية عميقة جدا في البحث اللغوي والنقدي،وحسا لغويا صحيحا، ووعيا ناضجا متعلقا بدراسة النصوص، الأمر الذي يجعل منه أحد أبرز مؤسسي الدراسة النصية، ذلك أن البحث اللغوي عنده لم يكن محصورا عند حد الجملة وفقط بل إن محاولاته تعدت إلى الربط بين المتتاليات الجملية داخل النص الواحد، ويكون بذلك قد ساهم مساهمة فعالة في مجال إبراز كيفية تماسك النصوص، حيث كان يرى أن النص يتحقق كنسيج لغوي محكم السبك والحبك على نحو تصاعدي، يبدأ بالبناء وينتهي

بالتصوير. وكانت هذه الملاحظات بمثابة إشارات نصية قيمة يمكن اعتبارها لبنة خام في بناء النص وتحليله، وهي نظرة تقف على قدم المساواة مع ما يوجد في الدراسات اللسانية الغربية في مجال لسانيات النص، التي تبحث فيما يكون به الملفوظ نصا وتنظر في الروابط بين جمل النص التركيبية منها والزمانية.

ومن هنا يمكن القول؛ أن ما قدمه الجرجاني في باب النظم ليعد من أكبر الجهود العلمية وأعظمها في الثقافة العربية والإسلامية، فمبادرته في دراسة النظم من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب.وإنها لتقف بكبرياء كتفا إلى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب، هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي كان ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبد القاهر. غير أنه من باب الموضوعية نقول؛ أن ما قدمه الجرجاني من خلال نظرية النظم يعد مقدمة، لتكوين نظرية لنقد النصوص ودراستها وبيان الجيد منها تقترب إلى حد كبير من التطبيق العملي لبعض أسس تماسك النص. فلم تكن هناك نظرية كاملة لمعالجة النص بصفته وحدة كلية، ولكنه استطاع أن ينتقي النصوص الجيدة، ويدرك بعمق أهمية العلاقات الدلالية التي تربط بين وحدات النص الجزئية لتشكل الوحدة النصية الكلية لنص ما.

5-خاتمة

نقول في الختام أن هذه الورقة حاولت أن تقدم وصفا لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، محددة أسسها ومظاهرها العلمية، ومبرزة مكانتها وأثرها في الدرس اللساني. وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:

1-أفاد عبد القاهر مما كتبه النحاة قبله في موضوع التعبيرات النحوية وخصائصها، كما استفاد من جهود كل من الجاحظ المتعلقة بتعليله إعجاز القرآن الكريم، وتفسير القاضي عبد الجبار لفصاحة القرآن، واعتبارها تقود إلى الأداء والصياغة النحوية للتعبير حتى وصل به الحال إلى ابتكار نظريته في المعاني السامية، كل هذا كان بمثابة الشعاع الذي ألهم عبد القاهر الجرجاني تفسيره للنظم ووضعه للنظرية .

2- تمكن عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم من الربط بشكل واضح بين مسائل علم النحو وعلم المعاني، وهي فكرة خلت منها الدراسات البلاغية السابقة، فالجرجاني لم يتوقف عند حدود النحو كقواعد وأسس لتكوين جمل فحسب ، بل تجاوز ذلك إلى مقاصد وأغراض المتكلم التي يريد تبليغها إلى السامع.

3-تمكن عبد القاهر الجرجاني بعبقريته الفذة من إثبات أن نظرية النظم، تعد نظرية نقدية لغوية لها كيانها المستقل في النقد الحديث، بدءا من منهجه في النظم المرتكز على أسس علمية دقيقة، وانتهاء بتحليل البنية اللغوية التي تصنعها قواعد التركيب ومعاني النحو .

4-هدفت هذه الدراسة إلى التأصيل لهذه النظرية، رغبة في التأكيد على أن الفكر اللغوي العربي لا يقل شأنا عن نظيره الغربي في البحث، ومكاشفة الظواهر اللغوية والأدبية، فنظرية النظم تتماشى مع ما وصلت إليه أحدث النظريات اللغوية

في كثير من القضايا ؛ والتي منها: أن اللغة نظام وليست مفردات وفقط، ومنها علاقة بين اللفظ والمعنى (الدال والمدلول) ومنها ارتباط الفصاحة والبلاغة بالنظم وليس باللفظ وحده، وغيرها من المسائل اللغوية اللطيفة ، التي لقيت صدى طيبا في الدرس العربي الحديث.

- الهوامش

[1]- الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح:محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، 2004، الصفحة203

[2]-عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، تع:محمود محمد شاكر،مطبعة المدني، جدة، ط3، 1992، الصفحة4

[3]-ابن المقفع ، الأدب الصغير والكبير ، دار بيروت ، 1964 ، الصفحة 12

[4]-عمرو بن بحر، الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون القاهرة، 1938، الصفحة 90

[5]-أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر،تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ،دار الكتب العربية مصر، الصفحة167 بتصرف

- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تح:أحمد صقر، دار المعارف القاهرة، ط3،د.ت، الصفحة112

قائمة المصادر والمراجع

1-أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تح: أحمد صقر ، دار المعارف القاهرة مصر ، ط3، (د. ت)

2-الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح:محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة،2004

3-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع : محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة، ط3

4- عمرو بن بحر ، الجاحظ ، الحيوان ، تح : عبد السلام هارون القاهرة ، 1938

5- ابن المقفع ، الأدب الصغير والكبير ، دار بيروت ، 1964

6-أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية مصر،1952